مجلة الدراسات التربوية والعلمية - كلية التربية - الجامعة العراقية
العدد السابع والعشرون - المجلد الخامس عشر - التاريخ - تموز 2026م
doi.org/10.52866/esj.2026.15.27.12

الوزير الكاتب أحمد بن يوسف بن القاسم (ت 213هـ/828م) ودوره الإداري والسياسي والأدبي (دراسة تاريخية)

م.د. أحمد محمود حمود
جامعة الأنبار / كلية التربية للعلوم الإنسانية / قسم التاريخ
الإيميل الجامعي: ahmed.m.h@uoanbar.edu.iq

مستخلص:

يتناول هذا البحث شخصية الكاتب والوزير أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح، أحد أعلام الكُتّاب والإدارة في العصر العباسي، ولا سيما في عهد الخليفة المأمون. ويهدف البحث إلى دراسة سيرته العلمية والإدارية، وبيان مكانته في البلاط العباسي، وتحليل مروياته التاريخية التي وردت في كتب التاريخ والتراجم والأدب. كما يسعى إلى تقويم القيمة التاريخية لهذه المرويات، وبيان أثرها في كتابة تاريخ العصر العباسي. وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال جمع النصوص المتعلقة بهذه الشخصية، وتحليلها في ضوء السياق التاريخي العام، وصولًا إلى نتائج تسهم في إبراز دور أحمد بن يوسف في الحياة السياسية والإدارية والفكرية.

الكلمات المفتاحية: أحمد بن يوسف ، العصر العباسي، ديوان الرسائل، البلاط العباسي، المأمون.

The Vizier-Secretary Aḥmad ibn Yūsuf ibn al-Qāsim (d. 213 AH / 828 CE) and His Administrative, Political, and Literary Role: (A Historical Study)

Asst. Prof. Ahmad Mahmoud Hamoud
University of Anbar / College of Education for Humanities / Department of History
University Email: ahmed.m.h@uoanbar.edu.iq

Abstract:

This study examines the figure of the secretary and vizier Ahmed ibn Yusuf ibn al-Qasim ibn Subayh, one of the prominent administrators and writers of the Abbasid period, particularly during the reign of Caliph al-Mamun. The research aims to investigate his scholarly and administrative career, highlight his position within the Abbasid court, and analyze the historical reports attributed to him in works of history, biography, and literature. It also seeks to assess the historical value of these narratives and clarify their impact on the writing of Abbasid history.

The study adopts a descriptive and analytical approach by collecting the texts related to this figure and analyzing them within the broader historical context, leading to conclusions that contribute to emphasizing the role of Ahmed ibn Yusuf in political, administrative, and intellectual life.

Keywords: Ahmed ibn Yusuf, Abbasid Era, Diwan al-Rasa il, Abbasid Court, Al-Mamun.

المقدمة

يُعد العصر العباسي من أكثر العصور الإسلامية ثراءً من الناحية السياسية والفكرية والإدارية، إذ شهد تطورًا ملحوظًا في نظم الحكم، وازدهارًا في العلوم والآداب، وكان للكتّاب والوزراء دور محوري في إدارة شؤون الدولة وصياغة سياساتها. وقد احتل ديوان الرسائل مكانة خاصة بين دواوين الدولة العباسية، لما اضطلع به من مهام خطيرة تتعلق بالمكاتبات الرسمية، والعهود، وتنظيم العلاقة بين الخلافة والولايات.

ومن بين الشخصيات التي برز دورها في هذا المجال أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح، الذي تولى ديوان الرسائل في عهد الخليفة المأمون، وحظي بمكانة رفيعة في البلاط العباسي. ورغم أهمية دوره، فإن هذه الشخصية لم تحظَ بدراسة تاريخية مستقلة وافية، واقتصر ذكرها في الغالب على إشارات متناثرة في كتب التراجم والتاريخ. ومن هنا جاءت أهمية هذا البحث الذي يسعى إلى تسليط الضوء على سيرته، وتحليل مروياته التاريخية ونتاجه الشعري، وبيان قيمتها العلمية.

وقد اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال تتبع الأخبار الواردة عنه في المصادر، وتحليلها ومقارنتها، مع الإفادة من المنهج النقدي في تقويم الروايات. وقد قُسّم البحث إلى ثلاثة مباحث، تناولنا في المبحث الأول سيرته الشخصية والعلمية فتطرقنا إلى التعريف بأحمد بن يوسف ونشأته وتكوينه العلمي، في حين خُصص المبحث الثاني لبيان الدور السياسي لأحمد بن يوسف بن القاسم ، أما المبحث الثالث اشتمل على مروياته التاريخية ونتاجه الشعري ، ثم خُتم البحث بأهم النتائج التي توصلنا إليها ، وبعدها قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا البحث.

المبحث الأول

سيرته الشخصية والعلمية

- **اسمه**: أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح [1].

- **كنيته**: يُكنى بـ أبو جعفر[2]، ويُعرف أيضاً بالكاتب[3].

ولادته: لم تذكر المصادر بالتحديد السنة التي ولد فيها أحمد بن يوسف ولكن يغلب الظن أن يكون ميلاده في منتصف القرن الثاني الهجري[4].

نسبه: ترجع أصوله من مدينة الكوفة وهو من قبيلة بني عجل[5] . في حين أن من المؤرخين من يذكر أنه مولى لبني عجل، ومنازلهم بسواد

(1) الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (ت: 463هـ) ، تاريخ بغداد ، تحقيق: بشار عواد معروف ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي (بيروت ، 2002) ، 6/ 463 .

(2) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت: 626هـ)، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1993)، 2/ 560.

(3) كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ، د.ت) ، 2/ 213 .

(4) ضيف ، أحمد شوقي عبد السلام ، تاريخ الأدب العربي، ط1 ، دار المعارف – (مصر ، 1995) ، 3/ 541 .

(5) ابن عساكر ، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت : 571هـ) ، تاريخ دمشق ، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق، 1995) ، 6/ 114 .

الكوفة[1] .

نشأته العلمية والأدبية: نشأ في بيئة علمية وأدبية أسهمت في صقل موهبته في الكتابة والبلاغة[2] ، وكان تحت رعاية أبيه الذي عني بتأديبه وتعليمه عناية كبيرة، فأعدّه للعمل في الدواوين، وزوّده بثقافة عربية وإسلامية ورياضية، فضلاً عن اطلاعه على آداب السياسة وثقافات العجم، مما أهّله ليكون من كتّاب الدولة في العصر العباسي[3] ، ووصف بأنه كان من أفاضل كُتّاب الخليفة المأمون (218-198هـ/ 833-813م) وأذكاهم، وأفطنهم وأجمعهم للمحاسن، وكان فصيحاً مليح الخط يقول الشعر للخليفة المأمون، وامتاز بجمال الأسلوب، وحسن الخط، وسرعة البديهة[4] . وعُد من أنه كان ذو طبقة عالية في البلاغة، ولم يكن في زمانه من هو أكفأ منه من الكُتّاب، وله شعر جيد مرتفع عن أشعار الكُتّاب[5] ، وكان أبوه يوسف يكتب لعبد الله بن علي عمّ الخليفة المنصور(158-136هـ/ 754-775م) ، وله شعر حسن وبلاغة. وكان أحمد وأخوه القاسم شاعرين أديبين، وأولادهما جميعاً أهل أدب يطلبون الشعر والبلاغة[6]. وتكشف هذه الصفات عن المعايير التي كانت معتمدة في اختيار الكُتّاب في العصر العباسي إذ لم تكن الكفاءة الإدارية منفصلة عن الكفاءة الأدبية .

أخلاقه ومكانته الاجتماعية ومروءته:

قيل في أحمد بن يوسف بأنه كان ممن جمع بين كمال الأخلاق من عقل راجح ونفسٍ سمحةٍ متواضعة وسيرة محمودة وبين جمال الهيئة والشخصية وهو من أرفع ضروب الثناء والوصف عند العرب[7]، وتجلّت المكانة الاجتماعية المرموقة لأحمد الكاتب في كونه أحد كبار رجال الدولة العباسية؛ إذ تعكس وصية القائد عبد الله بن طاهر[8] لابنه بضرورة معاشرة أحمد بن يوسف بمدينة السلام اعترافاً صريحاً بما كان يمتاز به من الأخلاق الحسنة والمروءة التي كانت تُمثل الركيزة الأساسية للوجاهة في ذلك العصر. وقد جسّد ابن يوسف

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 560/ 2 ؛ ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت: 660هـ) ، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: د. سهيل زكار ، دار الفكر ، (دمشق د.ت) ، 1270/ 3 .

(2) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني (ت: 845 هـ) ، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 2006) ، 459/ 1 .

(3) ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، 541/ 3 .

(4) ابن الجوزي ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت: 597هـ) ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا ، ط1 ، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1992) ، 251/ 10 ؛ الزركلي ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس (ت: 1396هـ) ، الأعلام ، ط5 ، دار العلم للملايين، (بيروت، 2002) ، 272/ 2.

(5) القيرواني ، إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري، أبو إسحاق الحُصري (ت: 453هـ) ، زهر الآداب وثمر الألباب ، دار الجيل، (بيروت ، د.ت) ، 483/ 2 .

(6) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 561/ 2 ؛ الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت: 764هـ)، الوافي بالوفيات ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، (بيروت، 2000)، 181/ 8 .

(7) المقريزي ، المقفى الكبير، 459/ 1 .

(8) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق أبو العباس الخزاعي ولاه الخليفة المأمون على الشام حربا وخراجا، فخرج من بغداد متوجهاً إليها ، وبلغ إلى مصر، ثم عاد، فولاه المأمون إمارة خراسان، وأقام بها حتى مات. الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، 162/ 11 .

نموذجاً فريداً في الفصل بين حياته الخاصة القائمة على الكفاف والاعتدال فيما أسماه بـ (القوت)، وبين التزاماته العامة التي أظهر فيها بذخاً تنظيمياً ووفرة مالية هائلة، تجلّت في قدرته على استيعاب النخبة العسكرية والسياسية في مآدب ضخمة عكست ثراء طبقة الكُتّاب وعلو مكانتهم في الإدارة والأعراف الاجتماعية، مما جعل من شخصيته رمزاً للذكاء والفطنة والقدرة في إدارة الموارد وصناعة المكانة والوجاهة في البلاط العباسي وعند المجتمع[1].

المناصب التي تولاها: بدأ أحمد بن يوسف مسيرته الوظيفية في الديوان العباسي بوظيفة كاتب، وقد ذُكر بأنه لما مات أحمد بن أبي خالد الأحول[2] شاور المأمون الحسن بن سهل[3] فيمن يكتب له ويقوم مقامه، فأشار عليه بأحمد بن يوسف وبأبي عباد ثابت بن يحيى الرازي[4]، وقال: هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين وخدمته وما يرضيه فقال له: اخترلي أحدهما، فقال الحسن: إن صبر أحمد على الخدمة وجفا لذّته قليلا فهو أحبّهما إليّ لأنه أعرق في الكتابة وأحسنهما بلاغة وأكثر علما، فاستكتبه المأمون[5] .

وكان قد قدم حلب في صحبة المأمون، وتولى له ديوان المشرق، وديوان الرسائل، ومن ثم وزر له ونادمه، وكان مختصاً به[6] ، وقد جاء هذا التولي نتيجة لتميزه في صياغة الرسائل الرسمية، وقدرته على الاختصار والإقناع[7] ، وكذلك ولاه المأمون على بريد خراسان[8] .

قربه من العامة: يتجلى جانب من صلة أحمد بن يوسف بالعامة ووعيه بأحوالهم في الرسالة التي وجّهها إلى الخليفة المأمون بشأن كثرة الوفود المحتشدين ببابه طلبًا للمساعدة[9]. فقد عرض في كتابه حال هؤلاء المنتظرين، مشيرًا إلى أن داعي جود الخليفة قد جمعهم على بابه، وأن طول مقامهم قد أجهدهم وأضرّ بهم، وأن فيهم من يستند إلى حرمة القرابة، ومنهم من يحتج بالخدمة السابقة. وجاء خطابه في صيغة ملتمسة مهذبة، دعا فيها الخليفة إلى إنعاشهم بعطائه وتحقيق حسن ظنهم بكرمه، بما يعكس دوره بوصفه وسيطًا إداريًا ينقل صوت الرعية إلى السلطة، ويوازن بين حفظ هيبة الخليفة ورعاية مصالح العامة[10]. جاء رد

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 562/ 2.

(2) أبو العباس أحمد بن أبي خالد الأحول الكاتب أصله من الموالي، كان جليل القدر من عقلاء الرجال، كاتبا سديدا فصيحا اللسان لبيبا، عارفاً ومبصراً بالأمور، تولى الوزارة للمأمون بعد الفضل بن سهل ، الذهبي، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، ط3 ، مؤسسة الرسالة، 1985م ، 255/ 10 .

(3) الحسن بن سهل: أبو محمد الحسن بن سهل بن عبدالله، أصوله فارسية اسلم زمن الرشيد وهو أخو الفضل بن سهل، وزير المأمون، استوزره الخليفة بعد موت أخيه الفضل بن سهل، وفوض الوزارة إليه ، وقدم معه إلى مدينة حلب حين قدمها غازيا، وتزوج الخليفة المأمون من ابنته بوران ، وأهدى الحسن من الأموال والجواهر شيئا عظيما مع ابنته ، وكان كريما جوادا حسن السياسة والسيرة والتدبير ووجيهاً عند المأمون، ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 2380/ 5 .

(4) عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازيّ تولى الوزارة للخليفة العباسي المأمون كان من الكُتّاب الحاذقين بالحساب، ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا (ت: 709هـ) ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، تحقيق: عبد القادر محمد مايو ، ط1 ، دار القلم العربي، (بيروت ، 1997) ، ص225 .

(5) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 561/ 2.

(6) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1270/ 3 .

(7) القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب، 484/ 2 .

(8) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1277/ 3 .

(9) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 563/ 2.

(10) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 564/ 2.

الخليفة المأمون على كتاب أحمد بن يوسف في توقيع رسمي أكد فيه أن أبواب الملوك مواضع يقصدها أصحاب الحاجات، وأن ذلك أمر طبيعي ملازم لمقام السلطان. ثم أمر أحمد بن يوسف بتسجيل أسماء الواقفين ببابه وبيان مراتبهم الاجتماعية والإدارية، حتى يصل العطاء إلى كل شخص منهم بحسب استحقاقه. كما شدد على ضرورة عدم إفساد المعروف بطول الحجاب وتأخير الثواب، لأن في ذلك إلحاقًا للمهانة بأصحاب الحاجات[1].

وفاته: توفي أحمد بن يوسف بحسب المصادر في شهر رمضان في سنة (213هـ/ 828م)[2]. واختلفت الروايات في سبب وفاته، بين من يرى أنه مات بسبب سخط الخليفة المأمون، وسبب هذا السخط حين أراد المأمون عقد مجلس خاص لا يحضره سوى أحمد وشخص ثاني يدعى أبي سمير[3]، تأكيدًا لخصوصية اللقاء، غير أن المأمون سمح لاحقًا بدخول الحسن بن سهل لما يتمتع به من مكانة سياسية رفيعة في البلاط العباسي، الأمر الذي اعتبره أحمد إخلالًا بالوعد المتفق عليه. وقد أدى اعتراض أحمد ومجادلته حول تلك المسألة إلى تصاعد حدة التوتر، إذ رأى المأمون في موقفه نوعًا من قلة التقدير لرجل كان سببًا في حمايته ودعمه. وانتهت تلك الواقعة بقرار المأمون بإبعاد أحمد عن مجالسه وإلزامه منزله تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته[4]، في حين هناك رواية تذكر بأن الحسد كان أساس إبعاد أحمد بن يوسف من قبل المعتصم[5] أخو الخليفة المأمون الذي دبر مؤامرة عن طريق أحد ندماء المأمون بوشاية كاذبة نُسبت لأحمد بن يوسف مفادها إتهامه للخليفة بالبخل فكانت النتيجة أن غضب المأمون فأبعده عنه وألزمه البقاء في منزله[6]، فكانت وفاته بسبب المرض أو الحزن الذي لحقه من ذلك فمكث فيه شهوراً عليلاً من هول الموقف حتّى مات بهذه العلّة[7]. تلك الحادثة تعكس طبيعة العلاقات الحساسة داخل البلاط العباسي وخطورة تجاوز آداب الخطاب والاعتراض المباشر أمام سلطة الخليفة العليا في ذلك العصر.

وأنشد أمام بستانه على شاطئ دجلة بيتًا شعريًا خرج من قلب حزين أليم قال فيه :

ما أطيب العيش لولا موت صاحبه

ففيه ما شئت من عيب لعائبه

وبقى يتأمل إلى بستانه وإلى نهر دجلة والحزن يأكل قلبه وكان في أيامه الأخيرة قبل أن يموت فترك طابعًا أدبيًا وتاريخياً مؤثرًا[8].

في حين هناك من ذكر بأن سبب غضب الخليفة المأمون عليه من أن أحمد بن يوسف كان كثير الوقوع في الزلات اللفظية والسلوكية، حتى أفضت إحداها إلى هلاكه. ففي رواية أخرى ذكرت بأنه كان من عادة الخليفة المأمون، إذا استعمل البخور، أن يضع العود والعنبر له أولًا، ثم يأمر بإخراج المجمرة

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 564/ 2.
(2) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، 427/ 5؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 567/ 2 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1278/ 3 .
(3) لم نقف له على ترجمة .
(4) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1278/ 3 .
(5) محمد المعتصم بن هارون الرشيد ابن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بويع له بالخلافة بعد أخيه المأمون بعهد منه ، كان قد قدم دمشق عدة مرات مع أخيه المأمون، ثم قدمها في خلافته. ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، 234/ 73.
(6) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ص132 .
(7) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص224.
(8) ابن الجوزي ، المنتظم ، 252/ 10 .

ووضعها تحت أحد جلسائه تكريمًا له، في إشارة إلى إشراكه الخليفة في طيب واحد[1]. وما أن حضر أحمد بن يوسف في أحد هذه المجالس، فعل المأمون معه ما جرت به العادة، فأمر بوضع المجمرة تحته، غير أن أحمد صدر عنه تعليق غير لائق بأن اعتبر هذا البخور قد استعمل قبله ، وهو تعبير فهم منه الاستخفاف بالفعل أو الاعتراض عليه وهو كلام فهمه المأمون على أنه اتهام له بالبخل. فغضب المأمون غضبًا شديدًا، وعدّ هذا القول إساءة بالغة، خصوصًا وهو المعروف بسعة إنفاقه، إذ ذكر أن نفقته اليومية تبلغ ستة آلاف دينار، وأن قصده لم يكن البخل بل إكرام أحمد بما كان يستعمله هو نفسه[2]. وبعد ذلك دخل أحمد على المأمون مرة أخرى وهو يتبخّر، فأمر المأمون هذه المرة بوضع مجمرة فيها قطع من العنبر تحته، وأمر بتغطيته بما يمنع خروج البخار، فصار الدخان محبوسًا حوله. فصبر أحمد على ذلك حتى اشتد عليه الأمر وغلبه الاختناق، فصاح مستغيثًا (الموت الموت)، فأزيلت المجمرة عنه وقد أُغمي عليه وقد احترق دماغه ثم عاد إلى منزله، وبقي مريضًا عدة أشهر يعاني من ضيق النفس حتى توفي بسبب هذه العلّة[3]. وتذكر رواية أخرى أنه لم يمت بسبب المرض مباشرة، بل مات كمَدًا وحزنًا نتيجة غضب المأمون عليه بسبب تلك الزلة، فنبذه الخليفة وأعرض عنه حتى أدى ذلك إلى وفاته[4].

وقد رثته جاريةٌ له مُغَنِّيَةٌ يُقال لها نسيم وكانت شاعرةٌ فقالت[5]:

«نفسي فداؤك لو بالناس كلِّهم
ما بي عليك تمنَّوا أنَّهمْ ماتوا»
«وللورى موتة في الدهر واحدة
ولي من الهم والأحزان موتات»

وقالت أيضاً[6]:

«ولو أن ميتا هابه الموت قبله
لما جاءه المقدار وهو هيوب»
«ولو أن حيّا قبله صابه الردى
إذا لم يكن للأرض فيه نصيب»

المبحث الثاني
دوره السياسي والإداري

أولًا: مكانته السياسية والإدارية

شكّل أحمد بن يوسف بن القاسم أحد الركائز الأساسية في الجهاز الإداري للدولة العباسية طيلة مدة خلافة المأمون، إذ ارتبط اسمه بمنصب كاتب المأمون إذ وقع الاختيار عليه لما كان يمتاز به من جمال الخط والأسلوب[7]، وارتقى إلى منصب إداري أسهم فعليًا في خدمة الخليفة المأمون في تسيير بعض

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 567/ 2.
(2) ابن طيفور ، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت: 280هـ)، كتاب بغداد ، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، ط3 ، مكتبة الخانجي – القاهرة ، 2002م ، ص132 ؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 567/ 2.
(3) ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا (ت: 709هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، تحقيق: عبد القادر محمد مايو ، ط1 ، دار القلم العربي، (بيروت ، 1997) ، ص223 224– ؛ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 183/ 8 .
(4) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص223 224–.
(5) سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله (ت 654 هـ) ، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، تحقيق: محمد بركات (وآخرون) ، ط1، دار الرسالة العالمية، (دمشق ، 2013) ، 12/ 14
(6) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 567/ 2.
(7) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، 251/ 10 ؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 561/ 2 .

شؤون الدولة من خلال دوره ككاتب ومستشار يعتمد عليه في صياغة عدد من القرارات وبذلك فهو يُعدّ كاتب المأمون الأول وأحد خاصّته المقرّبين[1].

وقد تجلّت مكانته بوضوح عندما كلفه المأمون في تولّي ديوان الرسائل، الذي يُعدّ من أهم دواوين الدولة العباسية وأكثرها تأثيرًا، نظرًا لارتباطه المباشر بشخص الخليفة وبسلطته العليا[2]. ومن هذا المنطلق، فإن الكاتب القائم على ديوان الرسائل كان يؤدي دورًا سياسيًا مركزيًا، إذ أمتلك أحمد بن يوسف القدرة على الفهم السياسي، وحسن اختيار الألفاظ والتعابير في المخاطبات الرسمية، كل هذه المؤهلات جعلته محلّ ثقة المأمون واعتماده في القضايا الدقيقة التي تخدم الخلافة ومشروعها السياسي[3].

ولم يقتصر نفوذ أحمد بن يوسف على الكتابة فحسب، بل اتّسع بأن تولى منصب الوزارة للخليفة المأمون بعد أن زادت مكانته وأثبت نجاحه فحصد رضا الخليفة[4] . فتوسعت مهام أحمد بن يوسف كالإشراف على المكاتبات الكبرى، والمشاركة في تقويم الرجال، والتدخّل في بعض شؤون التولية والعزل، وهذا إن دل فإنما يدلّ على أنه كان شريكًا في الحكم أكثر منه موظفًا تابعًا[5].

ويكشف هذا الموقع عن تحوّل مهم في دور الكتّاب في العصر العباسي، حيث لم يعودوا مجرّد أدوات تنفيذية، بل أصبحوا عناصر فاعلة في بناء الدولة وإدارة سلطتها. ويُعدّ أحمد بن يوسف مثالًا بارزًا على هذا التحوّل، إذ تداخلت في شخصه الوظيفة الإدارية مع النفوذ السياسي، وبرز كأحد الوجوه التي أسهمت في ترسيخ سلطة المأمون وصياغة ملامح عهده. غير أن هذا القرب الشديد من مركز السلطة جعله في الوقت نفسه عرضة لصراعات البلاط ومكائد الخصوم، وهو ما يبرز الوجه الآخر لموقع الكاتب في الدولة العباسية، بوصفه موقعًا محفوفًا بالمخاطر بقدر ما هو محفوف بالنفوذ[6].

وهناك رواية تكشف بدايات بروز أحمد بن يوسف ومكانته في الجهاز الإداري العباسي، وذلك عقب مقتل محمد الأمين والذي نُعت بالمخلوع وما أعقب ذلك من مراسلات سياسية حساسة لتثبيت شرعية المأمون[7]. إذ تذكر الرواية أن طاهر بن الحسين أمر الكُتّاب بكتابة كتاب إلى المأمون للإخبار بالواقعة، غير أن كتبهم جاءت مطوّلة، فطلب صياغة موجزة محكمة، فاستُدعي أحمد بن يوسف لما عُرف عنه من بلاغة وجودة في الإنشاء. فكتب أحمد بن يوسف رسالة ذكر فيها أن المخلوع وإن كان شريكًا للمأمون في النسب، فإن حكم الشرع فرّق بينهما في الولاية بسبب خروجه عن جماعة المسلمين، مستشهدًا بقوله تعالى: {قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}[8]، مؤكدًا أن القرابة لا اعتبار لها مع مخالفة الدين وتفريق الجماعة. كما ذكر بأن النصر تحقق للمأمون

(1) القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، 2/ 483 .
(2) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، 6/ 114 .
(3) قدامة بن جعفر، أبو الفرج بن قدامة بن زياد البغدادي (ت: 337هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، ط1، دار الرشيد للنشر، بغداد ، 1981 م ، ص38 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 3/ 1277 .
(4) ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت: 660هـ) ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، تحقيق: د. سهيل زكار ، دار الفكر ، (دمشق د. ت) ، 3/ 1270 .
(5) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، 2/ 563 ؛ ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص223 .
(6) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص224.
(7) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 2/ 562.
(8) سورة هود ، الآية : 46 .

كدلالة على استرداد الخليفة للسلطنة[1].

وتذكر الرواية أن طاهر رضي هذا الكتاب وأمضاه، فكان سببًا في تقديم أحمد بن يوسف وارتفاع مكانته في الديوان العباسي، مما يبرز دور الأسلوب البلاغي في تثبيت الشرعية السياسية بعد الفتنة[2].

ثانيًا: قرارته الإدارية:

برز دور أحمد بن يوسف في النصوص التاريخية بوصفه جزءًا من القرار السياسي – الإداري للدولة العباسية، فهو ليس مجرد ناسخ للقرارات ، فدخوله على الخليفة المأمون وجلوسه بين يديه يكتب والمأمون يملي عليه، يعتبر شكل من أشكال القرب السياسي؛ لأن الإملاء المباشر ليس وظيفة فحسب، بل هو لحظة صناعة قرار وصياغة خطاب رسمي يُبنى عليه توجيه الدولة. ثم إن النص يربط بين قربه من الخليفة وبين جودة أدواته من فصاحة اللسان، وحسن الخط بما يجعل حضوره مقرونًا بالثقة؛ فالكاتب الذي يكتب بين يدي الخليفة ويخرج كتابه إلى العمال والأمصار هو عمليًا عين الدولة ولسانها، ومن ثم فإن اعتماده عليه ليس أدبيًا بل هو اعتماد إداري وسياسي[3].

ويتجلّى دور أحمد بن يوسف في صناعة القرار السياسي من خلال مشاركته المباشرة في مشاورة الخليفة المأمون بشأن تولية غسان بن عباد على أقليم السند[4]، إذ قدّم تقييمًا إداريًا متوازنًا يقوم على الموازنة بين المحاسن والمساوئ رغم خلافه الشخصي مع غسان وهذا ما لاحظه المأمون بقوله لأحمد: «لقد مدحته على سوء رأيك فيه»[5] ، فرد عليه بأنه سيصدق الخليفة في الصديق والعدو إذا ما استشاره وطلب منه الرأي مؤكداً أن محاسن غسان أرجح وأكثر من عيوبه ومساوئه، وأنه يمتلك مهارة وسلوك إداري ناجح يجعل منه شخصية قيادية يُعتمد عليها في إدارة الولايات[7].

يكشف الموقف أن أحمد بن يوسف كان يمارس أخلاق الدولة لا أخلاق المجلس فالخصومة الخاصة لا تبرر إسقاط رجل يصلح لأمر مهم كولاية السند. ولو اتبع أحمد شهوة الانتقام لاختار التثبيط أو التشويه، لكنه اختار التقييم المتوازن لأن المقصود هو منفعة الخلافة وأن الدولة لا تُدار بالمشاعر، وأن نجاح الخليفة في اختيار الولاة ينعكس على الأمن والمال والخراج . لذلك كان صراحته مع المأمون صراحة محسوبة ترفع مصلحة السلطة فوق الأحقاد.

ثالثًا: دوره في توجيه السياسة الدينية والاجتماعية

أسند الخليفة المأمون لأحمد بن يوسف تكليفاً خاصاً والمتعلق بالإكثار من المصابيح في المساجد في رمضان فأصدر توجيهاً عاماً لكل العمال في الأمصار يأمر الناس بالاستكثار من المصابيح في المساجد الجامعة خلال رمضان، مع تعريفهم بما في ذلك من فضل. فالمأمون أراد قرارًا يَظهر كتعظيم

(1) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، 182/ 8 .
(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 563-562/ 2 .
(3) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ص129 .
(4) غسان بن عباد بن أبي الفرج أحد رجال الخليفة العباسي المأمون وهو ابن عم الفضل بن سهل. تولى ولاية «خراسان» من قبل الحسن بن سهل. ثم ولاه المأمون «السند» سنة 213 هـ وكان العامل عليها بشر بن داود المهلبي، قد عصى المأمون ولم يحمل إليه خراجها، فلما دخلها غسان استأمن إليه بشر. وأقام نحو ثلاث سنوات أصلح فيها شؤون الإمارة. الزركلي ، الأعلام، 119/ 5 .
(5) القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، 484/ 2 .
(7) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ، ص130 ؛ القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، 484/ 2 .

لتلك الشعيرة، لكنه في الحقيقة يوسّع سيطرة الدولة على تنظيم الليل الرمضاني في المدن. فالإكثار من المصابيح يرفع كثافة الحضور في المساجد ويُسهل قيام الناس، فيظهر الخليفة كراعٍ للدين وفي الوقت نفسه الضوء يمنع كثيرًا من الممارسات غير المرغوبة في الظلام، فيخدم الأمن دون أن يعلن ذلك كقمع. وهكذا تُمارس الدولة سلطتها بأداة ناعمة: شعيرة ذات مظهر ديني ونتائج سياسية[1].

رابعًا: دوره كوسيط سياسي داخل البلاط

عمل وسيطاً لحل الخلاف الذي وقع بين المأمون وجاريته مؤنسة إذ حصل خصام بسوء فهم وغضب بين المأمون وجاريته وهو أمر عادة ما يجري بين الجواري والخلفاء من غضب أو سوء تفاهم، ثم خرج المأمون إلى منطقة الشماسية[2] وتركها خلفه، ما يدل على قطيعة مؤقتة أو عقوبة معنوية. ولم تذكر المصادر تفاصيل الخلاف بقدر ما وضحت دور أحمد بن يوسف في حل هذا الخلاف لكن مجرد استغاثة مؤنسة به تكشف أنها رأت فيه بابًا موثوقًا للعودة إلى رضى الخليفة، وهذا يعني أن أحمد كان معروفًا بقدرته على التأثير وتهدئة التوتر. مما يدل على ثقته في قبول المأمون له حتى في لحظة غضب. ثم أدى الرسالة لا بنقل كلامها حرفيًا، بل بتحويلها إلى خطاب أدبي رمزي يفتح باب العفو ويُظهر سوء الحال ويستدعي كرم الخليفة بأبيات قالها:

«والله لو أبصرتني لوجدتني
والدمع يجرى كالجمان سجوما»
«هبني أسأت فعادة لك أن تري
متفضّلا متجاوزا مظلوما»[3]

إن أسلوب أحمد بن يوسف جاء بصياغة أدبية حملت معاني الوساطة فجاء رد المأمون بأنه فهم المقصود بعد سماعه تلك الأبيات بقبول الاعتذار والعفو عن جاريته[4].

خامسًا: مكانته وأثرها في تنامي الحسد والخصومة ضده:

بعد أن لمع نجم أحمد بن يوسف في البلاط العباسي كثُر الحاسدين والناقمين عليه فتذكر المصادر صراحة أن المعتصم أخو المأمون كما ذكرنا سابقاً إذ غلب عليه حسده لأحمد بن يوسف، ويُفهم سبب الحسد من مشهدين: الأول أن المأمون كان يخص أحمد بالحضور في وقت السحر، بينما يحضر المعتصم وأصحابه وقت الغداء؛ أي أن أحمد يملك وقتًا خاصًا مع الخليفة، وهذا أخطر من المال لأنه أصبح أقرب إلى القرار. والثاني أن أحمد أصبح مركز ثقة المأمون في الكتابة والتوقيع والرسائل والاستشارة، فصار موقعه يهدد مواقع نفوذ المتنافسين. لذا فالحسد جاء كشعور وحقد سياسي بأن أحمد يملك مفاتيح التأثير عند الخليفة[5].

وكانت المؤامرة اعتمدت على خطة بنقل خبر يُغضب الخليفة فجند المعتصم لهذه المهمة خادمًا له بمساعدة محمد بن الخليل -أحد ندماء المأمون-

(1) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ، ص130 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1277/ 3 .
(2) الشماسية: منطقة مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، منسوبة إلى بعض شمّاسي النصارى وإليها ينسب باب الشماسية، كانت فيها دار معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه، والشماسية هي أعلى من الرّصافة ومحلة أبي حنيفة. ياقوت الحموي، معجم البلدان ، 361/ 3.
(3) الصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله (ت: 335هـ)، الأوراق قسم أخبار الشعراء ، شركة أمل، (القاهرة ، 1425 هـ) ، 208/ 1 .
(4) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1276/ 3 ؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 566/ 2.
(5) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ص132 .

وذاعت على لسان السقائين بأن أحمد قال إن المأمون بخيل لأنه بخّره ببخور مستخدم كان تحته. هذه سعاية دقيقة لأنها تضرب نقطة حساسة في سمعة الخليفة وكرمه، وتُوحي بأن أحمد احتقر تكريم المأمون. أي أنهم لم يهاجموا أحمد في كفاءته، بل في أدبه مع الخليفة، لأن هذا أسرع طريق للغضب والحجب[1].

فكان من نتيجة تلك المؤامرة هو جفاء المأمون له وحجبه أيامًا، ثم تضييق سياسي انتهى إلى إلزامه منزله أو بقائه تحت سخط الخليفة حتى الموت[2]. خلاصة القول أن تلك المؤامرة نجحت وأحدثت أثرًا سياسيًا واقعيًا فقد اهتزت ثقة الخليفة بأحمد بن يوسف ذلك الرجل القريب بأدبه وولائه تحول هذا القرب إلى عداء وجفوة دفع ثمنها نتيجة تلك الوشاية ؛ لأن استهدافه جاء من أقوى أطراف البيت العباسي (المعتصم) وبخطة مراقبة داخلية واستغلال خدم القصر وتلفيق خبر حرك الخليفة غضباً ضده. لا تُحاك مثل هذه الخطة لإزاحة ناسخ عادي، بل لإبعاد رجل يُخشى أثره في القرار.

المبحث الثالث: مروياته التاريخية ونتاجه الشعري والأدبي

أولاً: مروياته التاريخية:

روى الكاتب والوزير أحمد بن يوسف عدد من الروايات التاريخية ذكرتها عدد من المصادر ، وقبل أن نتطرق إلى ذكرها وجب علينا أن نبين بأن أحمد بن يوسف كان قد روى وحكى عن الخليفة المأمون، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب[3]، وروى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف، وأحمد بن سلمة، وعلي بن سليمان الأخفش[4]، وأبو سعيد البصري، وأبو هفان[5].

ومن أبرز مروياته التاريخية ما ذكرته كتب التاريخ والتراجم:

1- روايته عن عبد الحميد بن يحيى فيما يتعلق بتحسين الخط : فقد روى قائلاً: «رآني عبد الحميد بن يحيى أكتب خطاً رديئاً، فقال لي: إن أردت أن يجود خطك فأطل رأس القلم ...»[6] أي أن الكاتب الكبير عبد الحميد بن يحيى رأى أحمد بن يوسف في أحد الأيام يكتب بخط غير متقن، فنبّهه إلى ضرورة العناية بأدوات الكتابة، وأرشده إلى الطريقة التي يمكن بها تحسين جودة الخط. وقد أوصاه عبد الحميد بإطالة رأس القلم وضبط قطّته وزاويته، مؤكدًا أن جمال الخط ليس أمرًا عفويًا، بل نتيجة تدريب ودقة في استعمال القلم. وتكشف هذه الرواية عن جانب مهم من تقاليد الكتابة في العصر العباسي، وعن الدور التعليمي الذي مارسه كبار الكُتّاب تجاه المكلفين في إدارة الدواوين. وبالفعل

(1) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ، ص132

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 566/ 2.

(3) عبد الحميد بن يحيى بن سعد أبو يحيى الكاتب مولى بني عامر بن كنانة، كان كاتباً لمروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وهو صاحب الرسائل والبلاغات، أحد من يضرب به المثل في الكتابة والبلاغة، حكى عنه خالد بن برمك وغيره، وقيل: كان في الأول مؤدبا، فأخذ يتنقل في البلدان وعنه أخذ المترسلون وقيل فتحت الرسائل بعبد الحميد، وختمت بابن العميد، ومجموع رسائله بلغت نحو من مائة كراس ، الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت : 748هـ) ، تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام ، تحقيق: بشار عوّاد معروف ، ط1 ، دار الغرب ، (بيروت ، 2003) ، 3/ 684 .

(4) المقريزي ، المقفى الكبير ، 1/ 459 .

(5) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 3/ 1270 .

(6) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، 6/ 463 ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، 7/ 318 .

أصبح خط أحمد بن يوسف بعد تلك الوصية جميلاً ومتقناً بدليل الرواية التالية.

2- روايته عند دخوله على الخليفة المأمون وإعجاب الخليفة بخطه: نقل أحمد بن يوسف موقفاً جرى له مع الخليفة المأمون، إذ دخل عليه يومًا فأمره الخليفة أن يكتب بين يديه بينما كان يملي عليه تأمل في خطه وأعجب بجودته، حتى عبّر عن تمنّيه أن يمتلك مثل هذا الخط الجميل. وقد ردّ أحمد بن يوسف على الخليفة بكلام يحمل بعدًا دينيًا وأدبيًا، مفاده أن الله تعالى لو اختص أحدًا من خلقه بالكمال في الخط لعلّمه نبيه محمدًا ﷺ. فأعجب المأمون بحسن جوابه ولباقته، وسرّ به، وأمر له بعطاء كبير[1]. وتبرز هذه الرواية منزلة الخط والكتابة في بلاط المأمون، كما تكشف عن مكانة أحمد بن يوسف عند الخليفة.

3- روايته عن أمر المأمون بالكتابة في شأن المصابيح في رمضان

روى أحمد بن يوسف خبرًا إداريًا ودينياً مهمًا يتعلق بسياسة المأمون في تنظيم شؤون المساجد، إذ قال: «أمرني المأمون أن أكتب إلى جميع العمال في اخذ الناس بالاستكثار من المصابيح في شهر رمضان وتعريفهم ما في ذلك من الفضل...»[2] ، أي إن الخليفة أمره أن يكتب إلى العمال والولاة في جميع الأمصار يدعوهم إلى حثّ الناس على الإكثار من المصابيح والقناديل في المساجد خلال شهر رمضان، ويذكر أحمد بن يوسف أنه واجه صعوبة كبيرة في صياغة هذا الكتاب، لأنه لم يجد نموذجًا سابقًا يحتذي به، ولم يسبقه أحد من الكتّاب في مثل هكذا مواضيع. الأمر الذي جعله يفكر في الطريقة التي يكتب بها ثم روى بعد ذلك أنه في وقت القائلة جاءه مُلهم أو آتٍ ألقى في نفسه عبارة جامعة، تتضمن الحكمة من زيادة الإضاءة في المساجد، مثل كونها أُنسًا للسابلة، وإضاءة للمتهجدين، ونفيًا لمواضع الريبة، وتنزيهًا لبيوت الله من وحشة الظلمة[3]. فكتب أحمد بن يوسف هذه المعاني في رسالته، وعدّ ذلك من غرائب ما كُلّف به لأن ذلك يحتاج إلى مهارة في التفكير ومهارة في صياغة مثل هكذا كتب[4] .

4- روايته عن أهل الصدقات وعدم رضاهم عن المأمون: روى أحمد بن يوسف موقفًا دار بينه وبين الخليفة المأمون، إذ دخل عليه بعد إنجازه أحد الكتب أو الرسائل، فقال للخليفة كلامًا يحمل طابع الشكوى من الناس وعدم رضاهم. وأشار أحمد بن يوسف إلى أن أهل الصدقات لم يرضوا حتى عن رسول الله ﷺ، حتى نزل فيهم قول الله تعالى: « {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} »[5]. ثم تساءل أحمد بن يوسف: إذا كان هذا حالهم مع النبي، فكيف يمكن لهم أن يرضوا عنه هو؟[6] . وتبرز هذه الرواية حساسية موقع الكاتب والوزير في الدولة، إذ كان عرضة للنقد واللوم من العامة.

5- روايته بعد أن شتمه رجل في مجلس المأمون: ومما ذكره أحمد بن يوسف عن حادثة تتعلق بما كان يقع في مجالس الخلفاء من خصومات ومواقف شخصية، إذ يذكر أنه شُتم من قبل رجل بحضرة

(1) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ص129 .
(2) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ص129 .
(3) القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، 485/ 2 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1277/ 3 .
(4) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة ، ص38 .
(5) سورة التوبة ، الآية : 58 .
(6) ابن طيفور ، كُتّاب بغداد ، ص130 .

الخليفة المأمون. فلم يرد أحمد بن يوسف مباشرة على الرجل، بل توجه إلى الخليفة قائلاً إن ذلك الشخص إنما يستمد جرأته وسلوكه مما يراه من موقف الخليفة، أي أنه يحاول أن يكتسب من هيبة المأمون ما يواجه به أحمد[1]. وتدل هذه الرواية على فطنة أحمد بن يوسف السياسية، وعلى حرصه على حفظ مكانته داخل مجلس الخليفة دون الدخول في مشادة مباشرة.

ثانياً: نتاجه الشعري:

يُعد أحمد بن يوسف بن القاسم من الكتّاب الذين جمعوا بين العمل الإداري والموهبة الأدبية، وقد ترك نتاجًا شعريًا متنوعًا يعكس ثقافته الرفيعة ومكانته في الوسط العباسي. وقد اتسم شعره بالرقة والسهولة، ومال في كثير منه إلى الأغراض التي شاعت بين شعراء الكتّاب، مثل الغزل، والمديح، والوصف، والحكمة. وسنتطرق إلى بعض المناسبات التي قال فيها الشعر فمما ذكرته المصادر أن صديقًا لأحمد بن يوسف كتب إليه في يوم غائم ماطر يدعوه إلى مجلس أُنس، واصفًا اليوم وصفًا أدبيًا بليغًا؛ فذكر أن السماء قد أرعدت وأبرقت، وأن الجوّ مناسب للاجتماع، وحثّه على الحضور، مؤكدًا أن الإنسان يقوى بإخوانه ويعتزّ بمشاركتهم. فاستجاب أحمد بن يوسف للدعوة، فلما اجتمعوا وتلبدت السماء بالغيوم قال أبياتًا شعرية ارتجالية، أشار فيها إلى أن الغيم قد يجلب المطر، وأن الرأي السديد في مثل هذا الجو أن يُدعى إلى الشراب، فيشرب الحاضرون ويتشاركوا مجلس الأنس، لأن يوم الغيم قد يتحول إلى يوم كآبة إن لم يُدفع بمجالسة الإخوان والحديث معهم[2] . وقال شعراً في تلك المناسبة[3]:

«أَرَى غَيْمًا تُؤَلِّفُهُ جَنُوبٌ
وَأَحْسَبُ أَنْ سَيَأْتِينَا بِهَطْلِ»

«فَعَيْنُ الرَّأْيِ أَنْ تَدْعُوَ بِرَطْلٍ
فَتَشْرَبَهُ وَتَدْعُوَ لِي بِرَطْلِ»

«وَتَسْقِيهِ نُدَامَانَا جَمِيعًا
فَيَفْتَرِقُونَ مِنْهُ بِغَيْرِ عَقْلِ»

«فَيَوْمُ الغَيْمِ يَوْمُ الغَمِّ إِنْ لَمْ
تُبَادِرْ بِالْمُدَامَةِ كُلَّ شُغْلِ»

«وَلَا تَكْرَهْ مُحَرَّمَهَا عَلَيْهَا
فَإِنِّي لَا أَرَاهُ لَهَا بِأَهْلِ»

وفي إطار ما عُرف عن البلاط العباسي من طقوس الاحتفال بالأعياد الموسمية كالنيروز[4] والمهرجانات، إذ جرت العادة على تبادل الهدايا بين الخاصة والخليفة، بوصفها تعبيرًا عن الولاء ومظهرًا من مظاهر القرب والمنزلة داخل مؤسسة الخلافة وفي هذا السياق أهدى أحمد بن يوسف إلى الخليفة المأمون صندوقاً ذهبياً وضع بداخله قطعة من العود الهندي النفيس، تعبيرًا عن احترامه وتقربه من الخليفة، إذ كانت الهدايا في البلاط العباسي رمزًا للولاء والتقدير[5]، وأرفقها بأبيات

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 568/ 2.

(2) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 564/ 2.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 562/ 2.

(4) النوروز عيدٌ سنوي موسمي ارتبط بقدوم الربيع، عُرف في الأصل في التقاليد الفارسية، ثم دخل إلى الحياة الاجتماعية في بعض عصور التاريخ الإسلامي، حيث اقترن بتبادل التهاني والهدايا وإقامة مظاهر الاحتفال، وقد انعكس حضوره في الأدب والرسائل الديوانية بوصفه موسمًا للفرح وبدايةً متجددة للزمان. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري ، لباب الآداب ، تحقيق: أحمد حسن لبج ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، 1997) ، ص56.

(5) المستعصمي ، محمد بن أيدمر (ت 710هـ) ، الدر الفريد وبيت القصيد ، تحقيق: كامل سلمان الجبوري ، ط1 ،

موجزة صاغ فيها معنى الطاعة وموقع الخادم من سيده، مؤكدًا أن الإهداء حقٌّ ملازم للخدمة، وأن قيمة الهدية لا تُقاس بقدرها المادي، بل بما تحمله من إجلال ومحبة وكتب معها هذه الأبيات[1]:

«على العبدِ حقٌّ فهو لا بدَّ فاعلُهُ
وإن عظُمَ المولى وجلّت فضائلُهُ»
«ألم ترَنا نهدي إلى الله مالَهُ
وإن كان عنه ذا غِنى فهو قابلُهُ»
«ولو كان يُهدى للكريم بقدرهِ
لقصّر فضلُ المال عنه وسائلهُ»
«ولكننا نهدي إلى من نعزُّهُ
وإن لم يكن في وُسعِنا ما يُعادِلُهُ»

وتكشف هذه المناسبة عن قدرة أحمد بن يوسف على توظيف الشعر توظيفًا ديوانيًا رفيعًا، يجمع بين الأدب والسياسة، ويعكس تقاليد البلاط العباسي في تثبيت معاني الولاء والاحترام عبر الصياغة البلاغية ، وعدها الثعالبي بأنها أحسن ما قيل في الإهداء إلى الكبار[2].

وفي سياق ما كان يعتري البلاط العباسي من توترات داخلية تتصل بالجواري والمقرّبين من الخليفة، وقع بين المأمون وجاريته «مؤنسة» كما ذكرنا سابقاً أمرٌ أفسد رضاه عنها، فغادرها إلى الشمّاسية وتركها خلفه. وإذ ضاقت بها السبل، استنجدت بأحمد بن يوسف لما كان له من منزلة عند الخليفة وقبولٍ لديه، ترجوه أن يتلطف في إصلاح ما فسد. فدخل أحمد بن يوسف على المأمون بصفة الرسول لا بصفة الوزير، معلنًا أنه يحمل رسالة، ثم أنشد أبياتًا صاغها في أسلوب استعطافي رقيق، يستحضر فيها معنى العتب، ويستميل عاطفة الخليفة، ويذكّره بعادته في الصفح والتجاوز[3]. فجاء الشعر هنا أداة وساطةٍ سياسية وأدبية في آنٍ واحد، استُخدم لتلطيف الجوّ وإعادة الوصل، في صورة تعكس مكانة أحمد بن يوسف وقدرته على توظيف البيان في خدمة المقاصد العملية داخل البلاط وأنشد[4]:

«قد كان عتبُكَ مرّةً مكتوماً
فاليومَ أصبحَ ظاهراً معلومًا»
«نالَ الأعادي سُؤلَهم لا هُنِّئوا
لمّا رأونا ظاعناً ومقيمًا»
«هَبني أسأتُ فعادةٌ لك أن ترى
متجاوزاً متفضِّلاً مظلوماً»

وما أن سمع المأمون تلك الأبيات رد قائلاً: «قد فهمت الرسالة كن الرسول بالرضاء. يا ياسر: امض معه. قال: فحملت الرسالة وحملها ياسر»[5]. أي أن الخليفة قد فهم المقصود من الرسالة، وأمر أحمد أن يكون رسولًا يحمل خبر الرضا لا الغضب. ثم التفت إلى خادمه وأسمه ياسر وأمره أن يذهب مع أحمد ليحمل الرسالة إلى الجارية مؤنسة.

ومن شعره في الحنين مخاطبة صديقٍ له إذ كتب أحمد بن يوسف إلى أحد أصدقائه أبياتًا يشكو فيها طول الانقطاع وامتداد العهد دون لقاء، مبينًا أن

دار الكتب العلمية، (بيروت ، 2015) ، 42/ 5.

(1) العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران (ت: نحو 395هـ) ، الأوائل، ط1 ، دار البشير، (طنطا ، 1408هـ) ، ص348 ؛ ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، 116/ 6؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 565/ 2؛ ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1275/ 3 .

(2) الثعالبي، لباب الآداب ، ص188.

(3) ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1277/ 3 .

(4) الصولي ، الأوراق قسم أخبار الشعراء ، 208/ 1 ؛ ابن طيفور ، كُتاب بغداد ، 130 ؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء ، 566/ 2.

(5) ابن طيفور ، كُتاب بغداد ، ص130 ..

طول الغياب يترك أثره في القلوب ويضعف أواصر المودة والصداقة. إذ قال[1]:

«تطاولَ باللقاءِ العهدُ منّا
وطولُ العهدِ يقدحُ في القلوبِ»
«أراكَ وإن نأيتَ بعينِ قلبي
كأنّكَ نصبُ عيني من قريبِ»
«فهل لكَ في الرواحِ إلى حبيبٍ
يقرُّ بعينه قربُ الحبيبِ»

وفي سياق علاقاته الاجتماعية داخل الوسط الإداري، تعرّض أحمد بن يوسف لعتابٍ من محمد بن الجهم البرمكي[2] بسبب صلته الوثيقة بموسى بن عبد الملك[3]، وما أُثير حول تلك الصلة من كلام وشبهات. ولم يأتِ ردّ أحمد بن يوسف في صيغة توضيح واعتذار مباشر، بل اختار أن يجيبه بأبياتٍ هجائية دافع فيها عن موقفه وعلاقته، فقد قال[4]:

«لا تَعْذِلَنِّي يا أبا جَعْفَرٍ
لَوْمَ الأَخِلَّاءِ مِنَ اللَّوْمِ»
«إِنَّ اسْتَهُ مُشْرَبَةٌ حُمْرَةً
كَأَنَّهَا وَجْنَةُ مَكْلُومِ»

نُقل عنه أيضاً أنه قال أبيات في وصف الليل وما يحمله من سهرٍ وهمٍّ وألمٍ داخلي، وهي صورة مألوفة في أدب العصر العباسي حيث كان الليل ميدانًا للتأمل والشكوى ومناجاة النفس فأنشد قائلاً[5]:

«كم ليلةٍ فيكَ لا صباحَ لها
أفنيتُها قابضاً على كبدي»
«قد غصّت العينُ بالدموعِ وقد
وضعتُ خدّي على بنانِ يدي»

ومن الأشعار التي أنشدها أحمد بن يوسف في الحثّ على الوفاء بالوعد واعتبار الالتزام به واجبًا على الحرّ قوله[6]:

«إذا قلتَ في شيءٍ نعم فأتمَّهُ
فإنَّ نعمَ دينٌ على الحرِّ واجبُ»
«وإلّا فقل لا تسترحْ وأرحْ بها
لكيلا يقولَ الناسُ إنك كاذبُ»

ومن الأشعار التي أُثبتت له صراحةً في المصادر، ما أُنشد عنه في باب كتمان السر، وفيها يقرر أحمد بن يوسف حكمةً أخلاقية تقوم على تحميل المرء مسؤولية سرّه، محذرًا من التسرع في إفشاءه وما يجره

(1) الصولي، الأوراق قسم أخبار الشعراء، 215/ 1؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 568/ 2؛ المستعصمي، الدر الفريد وبيت القصيد، 42/ 5.

(2) محمد بن الجهم البرمكي ويكنى أبا محمد ذكره ابن قتيبة في المبتدعة وقال فيه كان مصحفه كتاب أرسطو، وكان لا يصوم ويزعم أنه يعجز عن الصوم ويقول: لا يستحق أحد من أحد شكراً على خير قدمه وأسداه إليه. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت 852ه)، لسان الميزان، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط1، دار البشائر الإسلامية، 2002 م، 41/ 7.

(3) موسى بن عبد الملك بن هشام أبو عمران الأصبهاني صاحب ديوان الخراج وكان من جلة الرؤساء، ومن فضلاء الكُتّاب وأعيانهم، تنقل في الخدم في أيام عدد من الخلفاء. وكان يرأس ديوان السواد وغيره في أيام الخليفة المتوكل، وكان مترسلاً وله ديوان رسائل وله أشعار وصفت بأنها رقيقة وحسنة، روى عدد من الروايات عن الخليفة المهدي توفى في شوال سنة (246هـ)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، 337/ 5 -341.

(4) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 566/ 2؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، 183/ 8.

(5) ابن عساكر، تاريخ دمشق، 120/ 6؛ ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، 1274/ 3.

(6) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، 1275/ 3؛ المقريزي، المقفى الكبير، 459/ 1.

من لوم الآخرين عليه. فجعل ضيق صدر الإنسان بسرّه أول أسباب ضياعه، مؤكدًا أن من عجز عن حفظ سرّه فهو أولى باللوم من غيره ؛ فقال[1]:

«إذا المرءُ أفشى سرَّه بلسانهِ
فلامَ عليه غيرُه فهو أحمقُ»

«إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسهِ
فصدرُ الذي استودعتَهُ السرَّ أضيقُ».

النقد الأدبي في مجلسه

شكّلت المجالس الأدبية في العصر العباسي فضاءً ثقافيًا حيًّا تلاقحت فيه الفنون والآداب، وتبادلت فيه النخب الفكرية آراءها في الشعر والنثر والغناء والأدب وسائر ضروب البيان. ولم تكن تلك المجالس مجرد مناسبات للترفيه أو التسلية، بل أدّت دورًا مهمًا في تشكيل الذوق الأدبي وتقويم الأداء الفني، إذ كانت ساحةً للنقد المباشر الذي يُقال على الملأ، في حضور الخلفاء والوزراء والأدباء والمغنّين. وقد اتسم النقد في تلك المجالس بالصراحة والجرأة، فكان يُعبَّر عنه أحيانًا بأسلوب حاد أو ساخر، دون أن يفقد طابعه البلاغي والأدبي، فقد روي أن مغنيًا غنّى في مجلس أحمد بن يوسف، غير أنّ أداءه لم يكن مستحسنًا، فانصرف الحاضرون عن الإصغاء إليه وأخذوا يتحدثون أثناء غنائه، فغضب المغنّي وعدّ ذلك تقصيرًا في حقّه. عندئذٍ تدخل أحمد بن يوسف بكلمةٍ جمعت بين السخرية والبلاغة، فبيّن له أن سوء الأداء هو سبب الإعراض، لا تقصير السامعين، وأن من أثقل الأسماع وأملّ القلوب لا يحق له أن يطالب الناس بالإنصات[2].

وتكشف هذه الحادثة عن سرعة بديهته وحدّة تعبيره، كما تعكس طبيعة المجالس الأدبية في العصر العباسي، حيث كان النقد يُقال صريحًا، ويُعبَّر عنه بأسلوب بلاغي ساخر لا يخلو من شدّة.

الخاتمة

يُبرز تتبّع الدور السياسي لأحمد بن يوسف بن القاسم أن وظيفة الكاتب في العصر العباسي لم تكن مجرّد أداة تنفيذية لصياغة الرسائل والمكاتبات، بل كانت موقعًا فاعلًا في صناعة القرار السياسي وتوجيه الخطاب السلطاني. فقد جمع أحمد بن يوسف بين القرب من الخليفة المأمون، والمشاركة في تقويم الرجال المرشحين للمناصب، وصياغة الأوامر ذات الأبعاد الدينية والاجتماعية، فضلاً عن اضطلاعه بدور الوسيط في أزمات البلاط، وهو ما يكشف عن امتلاكه نفوذًا سياسيًا حقيقيًا تجاوز حدود الوظيفة الإدارية التقليدية.

كما تُظهر سيرته أن البلاغة لم تكن عنصرًا جماليًا محضًا، بل أداة سياسية تُستثمر في تثبيت الشرعية، وضبط المجال العام، وتلطيف التوترات داخل السلطة غير أن هذا القرب من مركز القرار جعله في الوقت نفسه عرضة لصراعات النفوذ والحسد داخل البيت العباسي، الأمر الذي أسهم في تراجع مكانته وسقوطه السياسي في نهاية المطاف. ومن ثمّ، فإن تجربة أحمد بن يوسف تمثّل نموذجًا دالًا على العلاقة المعقّدة بين السلطة والكتابة في الدولة العباسية، حيث كان الكاتب شريكًا في الحكم بقدر ما كان تابعًا له، ومهددًا به بقدر ما كان معزّزًا بقربه منه. ولم يكن كاتبًا إداريًا فحسب، بل كان

(1) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، 115/ 6 ؛ ابن العديم ، بغية الطلب في تاريخ حلب ، 1275/ 3 ؛ الأماسي ، محيي الدين، ابن الخطيب محمد بن قاسم بن يعقوب الحنفي (ت: 940هـ) ، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار ، ط1 ، دار القلم العربي، (حلب ، 1423 هـ) ، ص262 .

(2) القيرواني ، زهر الآداب وثمر الألباب ، 486/ 2.

عقلًا سياسيًا في بلاط الخليفة المأمون، ومهندس خطاب الدولة، ووسيط أزمات، ومستشار تولية وعزل، ووفي النهاية كان ضحية صراع النفوذ في قمة السلطة العباسية.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أولا: المصادر:-

1. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت: 597هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وآخر، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1992).

2. ابن الطقطقي، محمد بن علي (ت: 709هـ)، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، (بيروت، 1997).

3. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت: 660هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، (دمشق، د.ت) .

4. ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت: 280هـ)، كتاب بغداد / كُتّاب بغداد، تحقيق: السيد عزت العطار الحسيني، مكتبة الخانجي، (القاهرة، 2002).

5. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت: 571هـ)، تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، 1995م.

6. الأماسي، محيي الدين محمد بن قاسم (ت: 940هـ)، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، دار القلم العربي، (حلب، 1423هـ)..

7. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك (ت: 429هـ)، لباب الآداب، تحقيق: أحمد حسن لبج، دار الكتب العلمية، (بيروت، 1997).

8. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت: 463هـ)، تاريخ بغداد، تحقيق: بشار عواد معروف، ط1، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 2002).

9. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت: 748هـ)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب، (بيروت، 2003).

10. سير أعلام النبلاء ، تحقيق : مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، ط3، مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1985).

11. سبط ابن الجوزي، شمس الدين يوسف بن قزأوغلي (ت: 654هـ)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: محمد بركات وآخرين، دار الرسالة العالمية، (دمشق، 2013).

12. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت: 764هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وآخر، دار إحياء التراث، (بيروت، 2000).

13. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى (ت: 335هـ)، الأوراق (قسم أخبار الشعراء)، شركة أمل، (القاهرة، 1425هـ).

14. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (ت: نحو 395هـ)، الأوائل، دار البشير، (طنطا، 1408هـ).

15. قدامة بن جعفر (ت: 337هـ)، الخراج وصناعة الكتابة، دار الرشيد، (بغداد، 1981م).

16. القيرواني (الحُصري)، أبو إسحاق إبراهيم بن علي (ت: 453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، (بيروت، د.ت).

17. المستعصمي، محمد بن أيدمر (ت: 710هـ)، الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، (بيروت، 2015).
18. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت: 845هـ)، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط2، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 2006).
19. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت: 626هـ)، معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، 1993).

ثانياً: المراجع:-

1. الزركلي، خير الدين (ت: 1396هـ)، الأعلام، ط5، دار العلم للملايين، (بيروت، 2002).
2. ضيف ،أحمد شوقي عبد السلام ، تاريخ الأدب العربي ، ط1 ، دار المعارف ، (مصر ، 1995).
3. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت).